أسْبَابُ قلقِ المَوتِ عِند ابنِ خفاجة

إعداد

أ.عايدة عبد العزيز علي حسن
باحث ماجستيرفى قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب ـــ جامعة دمنهور

ا.د. محمد محمود أبوعلي
أستاذ النقد والبلاغة

ا.د. مروة شحاته الشقرفي
أستاذ الأدب

بقسم اللغة العربية كلية الآداب

جامعة دمنهور

دورية الانسانيات - كلية الآداب - جامعه دمنهور
العدد (64)- الجزء الأول - لسنة 2025

أَسْبَابُ قَلَقِ المَوتِ عِنْدَ ابْنِ خَفَاجَة

أ.عايدة عبد العزيز علي حسن
ا.د. محمد محمود أبوعلي
ا.د. مروة شحاته الشقرفي

المُلخَّص

المَوتُ حَقِيقَة مُؤَكَّدَة يُدْرِكُهَا البَشَرُ ، وتُصِيبُهُمْ بِالقَلَق ، إِمَّا لأَنَّهُمْ غير مُسْتَعِدِّينَ لِلِقَاءِ رَبِّهِمْ وخَوفًا مِنَ الحِسَاب ، وإِمَّا لِحُبِّهِم الحياة ، وتَمَسُّكِهم الشديد بها ، وإما لأنهم يَخَافُونَ مِنْ فِرَاقِ ذَوِيهِمْ ، ومِنْ هُنَا يَنْشَأُ التوترُ النفسيُّ والصراع الداخليّ بين حُبِّ الحياة والتَّمَسُّك بها ، والواقع الذى يَفْرِضُ عَلَى المَرْءِ العَجْز والموت .

ويرتكز موضوع البحث على دراسة أَسْبَابُ قَلَقِ المَوتِ عِنْدَ ابْنِ خَفَاجَة

ويَرْصُدُ هَذَا البَحْث أسباب قلق الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسيّ (ت533هـ) ، ويسعى لِعَرْض طريقة تفكير هذا الأخير ، وإظهار قلقه الشديد من الموت ، بَعْد أَنْ تَقَدَّمَتْ سِنُّهُ ، وأصبح مغلوبًا على أمره عن طريق قراءة النصوص الشعرية قراءةً دقيقة مُتعمقة ؛ لنرى إلى أي مدى بلغ تأثير قلق الموت في الإبداع الشعري لدى ابن خفاجة.

وأَتَّبَعْتُ في هذا البحث المنهج الوصفيّ ؛ لأنه يتناسبُ مَعَ رَصْدِ ظاهرة قلق الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسيّ ، ويساعدُ على تَفْسِيرِهَا ، وتوضيح ما فيها من قيم جماليَّة ، إلى جانب المنهج النفسيّ ، الذي يَنْظُرُ إلى إبداع الفَنَّان بوصفه استجابة مُعَيَّنة لِمُؤَثِّرَاتٍ خَاصَّة دالَّة على نفسيَّة صاحبه .

وقد جاء البحث في تمهيد وفصل وخاتمة على النحو الآتي :

فالتمهيد يتناول : **مُصْطَلَح قَلَق المَوت** فقد قُمت بتعريف مصطلح قلق الموت ، وغيرُ خَافٍ أَنَّ القلق من الموت أمر شائع بين الناس ؛ فالناسُ جَمِيعًا يخافون الموت ، وكَأَنَّ الخوفَ من الموت وحُبَّ الحياة وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَة .

و**النَّظَرِيَّاتُ المُفَسِّرَة لِقَلَقِ المَوتِ و** لقد اهتمت نظريات عِدَّة بِتَفْسِير قَلَق المَوت ، وَبَيَّنَتْ تأثيره في الإنسان ، وكان لكل نظريَّة وِجْهَة نَظْر مُبَايِنَة لِلنَّظَرِية الأُخْرَى ، ومنها : نَظَرِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِي ، و النَّظَرِيَّةُ السُّلُوكِيَّة ، و النَّظَرِيَّةُ المَعْرِفِيَّة ، النَّظَرِيَّةُ الوُجُودِيَّةُ، ونَظَرِيَّةُ إِدَارَةِ الرُّعْبِ.

نُبْذَة عَنْ ابْنِ خَفَاجَة تحدثت فيها عن نشأة الشاعر والمراحل التي مر بها في حياته وصفات كل مرحلة وتأثيرها في مَسلَك الشاعر وشخصيته .

أما ابحث فعنونته بـ (أَسْبَابُ قَلَقِ المَوتِ عِنْدَ ابْنِ خَفَاجَة)، وانقسم إلى ثلاث مباحث : المَبْحَثُ الأَوَّلُ : البَوَاعِثُ الشَّخْصِيَّة وفيه: **مَوتُ الفُجَاءَةِ** الذي شمل موت ابن أُخته مُحمد وموت أصدقاء شبابه ، وكان ذلك من الأسباب التي أظهرت مرض قلق الموت لدى الشاعر.

وشَيبُ الرَّأْسِ كّثُر حديث الشاعر عن الشيب كثيرًا ، فظهور الشيب لديه ارتبط بقرب النهاية ؛ فكان الشيب عبئًا ثقيلًا على الشاعر ؛ فالشيب نذير الموت.

وعُزُوفُهُ عَنِ الزَّوَاج لم يتزوج ابن خفاجة وعاش حياة لهو ومجون؛ فلم يكن لديه في كِبره الصوت الآخر الذي يؤنس وحدته ؛ فكان ذلك سبب من الأسباب التي أدت إلى ظهور قلق الموت

والمَبْحَثُ الثَّانِي : البَوَاعِثُ السِّيَاسِيَّةُ ، وفيه: **سُقُوطُ طُلَيطُلَة سَنة 478هـ** ،و كان سقوط طُلَيطُلَة حادثًا مُفزِعًا هز كيان الشاعر بل والأندلس كُلها لأنها كانت أقوى حصن في الأندلس. **حِصَارُ بَلَنْسِيَة (487هـ – 495هـ)** حاصر السيد الكمبيطور بَلَنْسِيَة وعندما دخلها أثار الفزع والرعب في نِفوس أهلها وأحرق عدد من زُعمائها ، فرحل ابن خفاجة إلى المغرب وذاق مرارة الغربة وبعده عن بلده ، وعبر عن حُزنه بعد حريقها على يد النصارى بشعر باكي يعبر عن الخراب الذي لحق بها .

والمَبْحَثُ الثَّالِثُ : البَوَاعِثُ الاجْتِمَاعِيَّةُ ، وفيه : **فَسَادُ المُجْتَمَعِ** ظهر فساد المجتمع في عصر ملوك الطوائف والمُرابطين ففي عصر ملوك الطوائف اعتلى المناصب اللئيم الفاسد وأُهْمِل الكريم الفاضل أما في عصر المُرابطين فكان للفقهاء دور واضح في الحياة في سياسة الدولة ، وظهرت شخصية الفقيه الانتهازية التي تسعى إلى الكسب المادي .

الاغْتِرَابُ النَّفْسِيّ من الأسباب التي جعلت الشاعر يُسيطر عليه شعور الاغتراب الأحدث السياسية التي سادت في عصره مثل: سُقُوطُ طُلَيطُلَة سَنة 478هـ ، وحِصَارُ بَلَنْسِيَة (487هـ – 495هـ) ، وعدم زواجه وذهاب شبابه ، وموت أصدقائه .

وانتهى البحث بخاتمة اشتملت على أبرز النتائج التي خرجتُ بها ، ثم ذيَّلتُ هذه الدراسة بالحواشي .

المُقَدِّمَة

الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذُ بالله من شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومن سيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ، ومَنْ يُضْلِلِ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وأشهدُ أَنَّ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شريكَ له ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا .

إنَّ المَوتَ ضَرُورَةٌ حَتْمِيَّة ، لا مَفَرَّ مِنْهَا ؛ ومشكلةُ المَوتِ هي مشكلة الصراع بين الإنسان وذاته القلقة ، وليس بخافٍ أن الإحساسَ بالخوف من الموت مِنَ المَشَاعِرِ التي تُؤَرِّقُ الإنسانَ وتُنَغِّصُ عَيشَهُ ؛ فإنْ مَاتَ عزيزٌ لديه ؛ فعندئذٍ يتيقنُ أَنَّهُ هو نفسه ليس بِمَنْأَى عَنْ هذا المصيرِ المحتومِ ؛ إنه يخافُ مِنَ المَوتِ ، وفي ذلك تعبيرٌ عن مَدَى تمسُّكِهِ بالحياة .

وكان موتُ مُحَمَّد ابن أخت ابن خفاجة – الذي عَدَّهُ وَلَدًا له – فجأةً ، وهو ما زال في رَيعَانِ الشَّبَابِ ، ذا أَثَرٍ عَمِيقٍ فِي نَفْسِهِ ، وغَيَّر نَظْرَتَهُ إلى الحياة مِنْ حَولِهِ ، وجعله يتَّخذُ من حادثة الموت مجالاً للتفكُّر في حقيقة الحياة ؛ مِمَّا أَفْضَى به إلى القلق الحادّ ؛ لإحساسه القويّ بمَرَارَةِ الفَقْد ، وقد عَبَّرَ عن هَولِ الصَّدْمَة التي أذهلته حين هَاجَمَ الموتُ ابنَ أُخْتِهِ ؛ فكانت الدهشة مرادفة للحَيرَة والعَجْز عن تبرير الحدث وتفسيره .

وتَطَوَّرَ هذا الإحساس بغُمُوضِ تَجْرِبَةِ المَوتِ إلى هَاجِسٍ قَوِيّ مُخِيف يُلِحُّ عَلَيهِ ، ويَحْرِمُهُ هَنَاءَ العَيشِ ، ولَذِيذَ الرُّقَاد .

ولأنَّه شاعرٌ مُرْهَف الحِسّ ؛ فقد نَفَذَ إلى نفسه – في مرحلة الشيخوخة – إحساسٌ حادّ بِالفَنَاء ، وخَوفٌ شديدٌ مِنْ زَحْفِ السِّنِّين ، وقلقٌ من اقتراب الأجل المُرْتَقَب ، لقد كان شديدُ الإحساسِ بدُنُوِّ الأَجَلِ ، ولَعَلَّ هذا ما دَفَعَهُ في رَيعَانِ شَبَابِهِ إلى الاستغراق في المَلَذَّات ، واغتنام فُرَص المُتْعَة ، على حين جَنَحَ في شيخوخته إلى الزُّهْد والتَّوبَة .

وهذا الخوف المُبَالَغ فِيه ، أمرٌ غير سَوِيّ ، ودلالة على اضطراب انفعاليّ شديد ، لقد أصبح هَذَا الهَاجِسُ شُغْلَه الشَّاغِل ، الذِي يُفَكِّرُ فِيهِ دَائِمًا ؛ حَتَّى إِنَّهُ نَظَمَ أبياتًا وأَعَدَّهَا لِتُكْتَبَ على قَبْرِهِ ، وصار يتوقعُ الموتَ في كُلِّ حِين .

أهداف البحث:

يَرْصُدُ هَذَا البَحْث أسباب قلق الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسيّ (ت533هـ) ، ويسعى لِعَرْض طريقة تفكير هذا الأخير ، وإظهار قلقه الشديد من الموت ، بَعْد أَنْ تَقَدَّمَتْ سِنُّهُ ،

وأصبح مغلوبًا على أمره ، عن طريق قراءة النصوص الشعرية قراءةً دقيقة متعمقة ؛ لنرى إلى أي مدى بلغ تأثير قلق الموت في الإبداع الشعريّ لدى ابن خفاجة .

منهج البحث :

وأَتَّبَعْتُ في هذا البحث المنهج الوصفيّ ؛ لأنه يتناسبُ مَعَ رَصْدِ ظاهرة قلق الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسيّ ، ويساعدُ على تَفْسِيرِهَا ، وتوضيح ما فيها من قيم جماليَّة ، إلى جانب المنهج النفسيّ ، الذي يَنْظُرُ إلى إبداع الفَنَّان بوصفه استجابة مُعَيَّنة لِمُؤَثِّرَاتٍ خَاصَّة دالَّة على نفسيَّة صاحبه .

وقد جاء البحث في تمهيد وفصل وخاتمة على النحو الآتي :

فالتمهيد يتناول : (مُصْطَلَح قَلَق المَوت ، النَّظَرِيَّاتُ المُفَسِّرَة لِقَلَقِ المَوتِ ، نُبْذَة عَنْ ابْن خَفَاجَة).

أما البحث فعنونته بـ (أَسْبَابُ قَلَقِ المَوتِ عِنْدَ ابْنِ خَفَاجَة)، وانقسم إلى ثلاث مباحث : المَبْحَثُ الأَوَّلُ : البَوَاعِثُ الشَّخْصِيَّة ، و المَبْحَثُ الثَّانِي : البَوَاعِثُ السِّيَاسِيَّةُ ، و المَبْحَثُ الثَّالِثُ : البَوَاعِثُ الاجْتِمَاعِيَّةُ .

التمهيد :

إنَّ القلق من الموت أمر شائع بين الناس ؛ فالناسُ جَمِيعًا يخافون الموت ، وكَأَنَّ الخوفَ من الموت وحُبَّ الحياة وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَة .

ولقد احتلت قضية قلق الموت مساحةً كبيرة في الفكر الفلسفيّ قديمًا وحديثًا ؛ فوصفه هولتر (Hoelter) (ت1979م) بأنه « استجابة انفعاليَّة تتضمن مشاعر ذاتيَّة من عدم السرور ، والانشغال المعتمد على تأمُّل أو توقُّع أيّ مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت » [1] .

وأَكَّدَ تمبلر (Templer) (ت1984م) أنه « حالة انفعاليَّة غير سارَّة يُعَجِّلُ بها تَأَمُّل الفَرْد فِي وَفَاتِهِ هُو » [2] ، وصَرَّحَ بِأَنَّ قَلَقَ المَوتِ يُحَدِّدُهُ عَامِلَين : حالة الصحة النفسيَّة بوجه عام ، وخبرات الحياة المُتَّصِلَة بموضوع الموت [3] ؛ فإنَّ مَنْ يُعَانِي مِنْ خَلَل في صِحَّتِهِ النفسيَّة ، والمُصَاب بِمَرَض خَطِير ، يسيطرُ قَلَقُ المَوتِ على كِيَانِهِ ، ويُكَدِّرُ صَفْوَ حَيَاتِهِ .

وترى ميلانى كلاين (Milanaa Klayn) (ت1960م) أن « الخوف من الموت ، هو أساس كل قلق » [4] .

وأشار أحمد محمد عبد الخالق إلى أنَّ قَلَقَ المَوتِ « تَرْكِيب مُتَعَدِّد الأبعادِ » [5] ، لا يشير إلى خوف مُحَدَّد ؛ إِنَّهُ نَوعٌ مِنَ القَلَقِ العَامّ ، الذي يتركز حول موضوعات مُتَّصِلَة بِالمَوتِ والاحتضار لدى الشخص أو ذويه [6] .

ثَانِيًا : النَّظَرِيَّاتُ المُفَسِّرَة لِقَلَقِ المَوتِ :

لقد اهتمت نظريات عِدَّة بِتَفْسِير قَلَق المَوت ، وَبَيَّنَتْ تأثيره في الإنسان ، وكان لكل نظريَّة وِجْهَة نَظْر مُبَايِنَة لِلنَّظَرِية الأُخْرَى ، ومنها :

أ) نَظَرِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِي (Psychoanalysis Theory) :

يُعَدُّ نموذج التحليل النفسيّ واحدًا من أقدم النماذج المُفَسِّرةِ لِلقَلَق وأكثرها تأثيرًا ، وقد كان سيجموند فرويد (Sigmund Freud) (ت1939م) أول مَنْ لفت الانتباه إلى الدور المحوريّ للقلق في ديناميات الشخصيَّة والنظريات الارتقائية ؛ حتى إنه جَعَلَ القَلَقَ إِحْدَى الدعائم البارزة في نظرية التحليل النفسيّ [7] .

ب) النَّظَرِيَّةُ السُّلُوكِيَّةُ (Behavioral Theory) :

يرى أصحاب النظريَّة السلوكيَّة أنَّ القَلَقَ سُلُوكٌ بيئي مُتَعَلَّم من البيئة عن طريق التعزيز ، واستجابة شَرْطِيَّة مُؤْلِمَة تُحَدِّد مصدر القلق عند الفرد ، وأن الخوف ينشأ عن الأفعال التي ارتكبها الفرد ، وليس تلك التي كَبَتَهَا [8] .

إنَّ القلق يقوم بدور مزدوج ؛ فهو من ناحية يُمَثِّلُ حافزًا (Drive) ، ومن ناحية أخرى يعد مصدر تعزيز ، وذلك عن طريق خفض القلق ؛ فإن العقاب يؤدى إلى كَفِّ السُّلُوكِ غير المرغوب فيه ، ومِنْ ثَمَّ يَتَوَلَّدُ القَلَق ، الذى يعد صفة تعزيزية تؤدى إلى تعديل السلوك [9] .

ج) النَّظَرِيَّةُ المَعْرِفِيَّةُ (Cognitive Theory) :

يُرَكِّزُ التفسيرُ المعرفيُّ لاضطرابات القلق على « الطَّرِيقَة التي يُفَكِّرُ بِهَا الناسُ القَلِقُونَ حَولَ المُشْكِلات والمَوَاقِف والأَخْطَار المُحْتَمَلَة ؛ فَالأَفْرَاد الذِين يُعَانُونَ مِنَ القَلَقِ يَمِيلُونَ إلى وضع تقييم غير واقعيّ لِلمَوَاقِفِ المُعَيَّنَة ، وبِخَاصَّةٍ التِي تَكُون فِيهَا إِمْكَانِيَّة الخَطْر بَعِيدَة ؛ فَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَقْيِيم احتماليَّة الأَذَى ودَرَجَته ؛ فهذا النوع من التفكير يجعل الفرد مُفْرِط الحَذَر ، ودائمًا يبحث عن إشارات الخطر ؛ فالضَّجَّة أو الضوضاء في المنزل تُفَسَّر على أنها حَرِيق قد حدث » [10] .

د) النَّظَرِيَّةُ الوُجُودِيَّةُ (Existentialism Theory) :

رَكَّزَتْ النَّظَرِيَّات الوُجُودِيَّة على أن الفرد يجب أن يتقبل حتميَّة الموت بوصفة حقيقة مطلقة ، وينبغي له أن يجد معنى الوجود الإنسانيّ في حقيقة موته هو ، وافترضت أنَّ الرُّعْبَ من

الموت مصدر بارز للدافعيَّة ، وينتج من تجنُّب هذه الحقيقة حياة فارغة ، ذات معنى غير مُثْمِر [11] .

هـ) نَظَرِيَّةُ إِدَارَةِ الرُّعْبِ (Terror Management Theory) :

يعي الإنسانُ حَتْمِيَّةَ المَوت ، وأنه لا مَفَرّ منه ، ولكنه يَوَدُّ طُولَ البَقَاءِ ، بل الخلود ، وهذا الأمر يستحيل حدوثه ؛ فلا يملك إزاء ذلك إلا إدارة العقل للتغلُّب على الخوف من الموت ؛ كي لا يتملكه الشعور بالهَلَع مِنَ العَدَم ، ويُدَمِّرُهُ .

اختلفت رُؤَى النَّظَرِيَّات المُفَسِّرَة لِقَلَقِ المَوت ؛ فأكدت نظرية التحليل النفسيّ أن معظم أنواع القلق ما هي إلا مظهر خادع لقلق الموت ، ورأت النظرية السُّلُوكِيَّة أَنَّ القَلَقَ سُلُوكٌ مُتَعَلَّم ومُكْتَسَب ، يَنْتُجُ مِنْ وَضْعِ الإنسان في موقف يكون فيه التخلُّص من المثيرات المُزْعِجَة غَير مُمْكِن ؛ فكأَنَّ الإنسانَ فِي مُوَاجَهَة مَعَ المَوت ، أَمَّا النظريَّة المَعْرِفِيَّة فهي تُرَكِّزُ على الطريقة التي يُفَكِّرُ بها مَنْ لديهم مُشْكِلَة القلق ؛ فهم يَمِيلُونَ إلى وَضْع تقييم غير واقعيّ للمواقف المُحْبِطَة ؛ مِمَّا يُنَشِّطُ قلق الموت ، وتُصَرِّحُ النظرية الوجوديَّة بأن الإنسان لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَقَبَّلَ حتميَّة الموت بوصفه حقيقة مُؤَكَّدة ، وينبغي أن يجد معنى الوجود الإنسانيّ في حقيقة موته هو ، وأخيرًا ترى نظرية إدارة الرعب أن كل إنسان يستخدم الوسائل المُتَاحَة فِي إِطَار بِيئَتِهِ وثَقَافَتِهِ ؛ لمقاومة القلق الذي يسيطر عليه نتيجة إدراكه أنه سيموتُ لا مَحَالَة .

ثَالِثًا : نُبْذَة عَنْ ابْن خَفَاجَة :

وُلِدَ ابنُ خَفَاجة بجزيرة شُقْر (Jucar) من أعمال بَلَنْسِيَة (Valencia) من بلاد الأندلس [12] ، وكان مَولِدُهُ سنة 450هـ ، ووفاته سنة 533هـ [13] ، وقُدِّرَ لَه أنْ يعيشَ ثلاث وثَمَانِينَ عامًا .

وشُقْر جزيرة جميلة ، ذات طبيعة خلاَّبة ، يوجد بها أنهار وجبال وحدائق مليئة بالورود والرياحين ؛ فقد كانت – كما وصفها ياقوت الحَمَوِيّ (ت 626هـ) – « أَنْزَهَ بِلادِ اللهِ ، وَأَكْثَرَهَا رَوضَةً وَشَجَرًا وَمَاء » [14] .

ولقد عاش « ابن خفاجة الحياة بكل ألوانها ؛ فقد قضى صدر شبابه يحيا حياة اللهو والمجون ، ثم اعتزل هذا اللون من الحياة ... وعاش صَرُورَة ، أي بلا زواج ، يُرَاعِي أَمْلاكَهُ » [15] ؛ حيث وَرِثَ عَنْ وَالِدِهِ ضيعة ببَلَنْسِيَة (Valencia) [16] .

ويمكن تقسيم حياة ابن خفاجة إلى أربعة مراحل :

المَرْحَلَةُ الأُولَى : مَرْحَلَةُ اللَّهْوِ (465هـ – 478هـ) :

استغرقت ثلاثة عشرة عامًا ، مِنْ سِنّ الخامسة عشرة حَتَّى سِنّ الثامنة والعشرين ، وكانت فِي زَمَنِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ؛ حيث كان « مُضْرِبًا عنهم ، مُسْتَغْرِقًا فِي الطبيعة ، يَمِيلُ شِعْرَهُ فيها إلى المقطوعات أكثر من القصائد » [17] .

وقد عاش ابنُ خَفَاجَة في هذه المرحلة حياة لهو ومجون ، وشَرِبَ الخَمَرَ حَتَّى ثَمِلَ ، وتَغَزَّلَ غَزَلاً حِسِّيًّا ، وتَغَزَّل بالمُذَكَّر ، ووَصَفَ الطَّبِيعة الصَّامِتَة – برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ، وما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ كُلّه من نسيم ورياح وأمطار – وَصْفًا مُبْهِجًا ، وتَغَنَّى بجمالِهَا ، وتَفَنَّنَ فِي وصف ذلك ، ونَفْسُهُ تَفِيضُ بِشْرًا.

ومَثَّلَت الحياةُ ، في نَظَرِهِ ، خَمْرًا مُعَتَّقَة ، يَسْقِيهَا غُلامٌ رشيق مليح ، يقول : (رَمَل)

إِنَّمَا العَيشُ مُدَامٌ أَحْمَرُ قَامَ يَسْقِيهِ غُلامٌ أَحْوَرُ [18]

المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَرْحَلَةُ الانْقِطَاعِ عَنْ قَولِ الشِّعْرِ (478هـ – 484هـ) [19] **:**

كانت هذه المرحلة في عصر مُلُوك الطَّوَائِف ، واستغرقت سِتَّ سَنَوَات من سِنّ الثامنة والعشرين ؛ حَتَّى سِنَّ الرابعة والثلاثينَ ، وفيها انقطع ابن خفاجة عن قول الشعر ، وانشغل برعاية ضَيعَتِهِ ، وفي هذه المرحلة شَاهَدَ سُقُوط طُلَيطُلَة (Toledo) في أيدي النصارى عام (478هـ) ، وكان سُقُوط هذه المدينة حَدَثًا أفزع شُعَرَاء الأندلس ، وأشار ابن خفاجة إلى هذه المرحلة في خُطْبَةِ الدِّيوَان ، يقول : « وَلَمَّا انْصَدَعَ لَيلُ الشَّبَابِ عَنْ فَجْرِهِ ، وَرَغِبَ المَشِيبُ بِنَا عَنْ هَجْرِهِ ، نَزَلْت عَنْهُ [أي الشِّعْر] مَرْكَبًا ، وَتَبَدَّلْتُ بِهِ مَذْهَبًا ؛ فَأَضْرَبْتُ عَنْهُ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ طَوِيلةً ، إِضْرَابَ رَاغِبٍ عَنْهُ ، زَاهِدٍ فِيهِ ؛ حَتَّى كَأَنِّي مَا سَامَرْتُهُ جَلِيسًا ، يُشَافِهُنِي أَنِيسًا ، ولا سَايَرْتُهُ أَلِيفًا ، يُفَاوِهُنِي لَطِيفًا » [20]

المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ : مَرْحَلَةُ التَّشَاؤُمِ (484هـ – 503هـ) :

استغرقت هذه المرحلة تسع سنوات مِنْ سِنّ الرابعة والثلاثين حَتَّى سِنَّ الثالثة والخمسين ، وكانت هذه المرحلة في حُكْم المُرَابِطِينَ لبلاد الأندلس (484هـ – 541هـ) ، وفيها تَأَمَّلَ حَالَهُ ، وما ينتظره ، وبَدَأَ التَّشَاؤُمُ يَدِبُّ رويدًا في نفسه ؛ بسبب الحروب المُسْتَمِرَّة ؛ حيثُ فَقَدَ الاطمئنانَ ، وأصبح في حالة غير ثابتة » [21] ، وعاد إلى قول الشعر ، بعد أنْ وَجَّهَهُ وِجْهَةً مُغَايِرَة ؛ « فابتعد عن المُجُونِ ... ومَالَ شِعْرُهُ إِلَى القُوَّة والجَزَالَة والطُّول والتأمُّل »

[22] ، وغَلَبَتْ عليه الأغراضُ الشعريَّةُ الدالَّة على الحُزْن والقَلَق ، مثل : (شكوى الدهر – الزهد – الرثاء – الحنين إلى الوطن) .

وها هو يشكو الزمان الذي سَلَبَهُ الشباب ، والتفاؤل ، والجمال ، وجَعَلَهُ يَذْرِفُ الدُّمُوعَ ، يقول : (كامل)

فِيمَ التَّجَمُّلُ فِي زَمَانٍ بَزَّنِي ثَوْبَ الشَّبَابِ ، وَحِلْيَةَ النُّبَلاءِ

فَعَرِيتُ إلاَّ مِنْ قِنَاعٍ كَآبَةٍ وَعَطِلْتُ إلاَّ مِنْ حُلِيِّ بُكَاءِ [23]

وانتهت هذه المرحلة بموت مُحَمَّد ابن أخته ، وكان شابًّا صغيرًا ، وتُوُفِّيَ فِي صَحْرَاء أغمات (Aghmat) بالمَغْرِب ، وكانت وفاته قبل عام 503هـ [24] ، وكان عُمْرُ ابنُ خَفَاجة – في ذلك الوقت – اثنتا وخَمْسِينَ سَنَة ، وكانت وفاةُ مُحَمَّد ابن أخته سببَ ظُهُورِ قلق الموت عنده بصورة واضحة

المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ : مَرْحَلَةُ قَلَقِ المَوتِ (503هـ – 533هـ) :

استغرقت ثلاثينَ عامًا مِنْ سِنّ الثالثة والخمسين حَتَّى سِنّ الثالثة والثمانين ، وفي هذه المرحلة تَمَكَّنَ مِنْهُ مَرَضُ قَلَق الموت ، وسَيطَرَ على نَفْسِهِ ، وفَقَدَ قُدْرَتَهُ عَلَى التمتُّعِ بِمَلَذَّاتِ الحَيَاة تمامًا ، وحَاسَبَ نَفْسَهُ على مَا اقْتَرَفَهُ مِنْ ذُنُوبٍ فِي شَبَابِهِ ، وزَادَ مِنْ وَطْأَةِ الشُّعُورِ بقلق الموت أنه لم يتزوجْ .

وغَلَبَ على شِعْرِهِ في هذه المرحلة : الاندماج الكامل في مظاهر الطبيعة ، ورثاء النفس ، وهذا يؤكد – كما يقول إحسان عباس – « مَوقِفًا مَرَضِيًّا فِي خَوفِهِ مِنَ المَوت ، وَفِي إِحْسَاسِهِ بِالزَّمَنِ » [25] ؛ حَيثُ ذَكَرَ سنواتِ عُمْرِهِ كثيرًا في شِعْرِهِ ، وأطال الوقوف بالمقابر .

ولقد قَادَ قَلَقُ المَوتِ ابن خفاجة إلى البكاء ؛ نَدَمًا على ما اقترفه من ذنوب ، يقول : (الطويل)

فَذَرْنِي أَنُحْ حُزْنًا ، وَقَلَّ لِمُجْرِمٍ تَدَانَتْ خُطَاهُ أَنْ يَكُونَ يَنُوحُ [26]

أَسْبَابُ قَلَقِ المَوتِ عِنْدَ ابْنِ خَفَاجَة

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : البَوَاعِثُ الشَّخْصِيَّة :

* مَوتُ الفُجَاءَةِ :

كَتَبَ ابنُ خَفَاجَة قصيدة في رثاء ابن أخته مُحَمَّد ، الذي مَاتَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ فَجْأَةً ، بصحراء أغماتَ ببلاد المغرب بقُرْب وَادِي دَرْعَة [27] ، واستغرقت القصيدة سبعة وعشرينَ بيتًا ، وقد أجادَ في قصيدته ؛ بسبب لوعة الفقد ؛ التي جعله يقول شعرًا جَيِّدًا

صادقًا يؤثر في النفوس ؛ فتنتقل الحالة النفسيَّة التي سيطرت عليه وَقْتَ كِتَابَة القصيدة إلى قارئه ؛ فشعر الرثاء الصادق يَصِلُ إلى القلب ، ويُعَبِّر عن عاطفة فاجعة ، وقد أحسن بداية قصيدته ؛ « فإنَّ الشِّعْرَ قُفْلٌ أوَّله مِفْتَاحه ، وينبغي للشاعر أنْ يُجَوِّد ابتداءَ شِعْره ؛ فإنه أوَّل ما يَقْرَعُ السَّمَع ، وبه يُسْتَدَلُّ على ما عنده من أول وَهْلَة » [28] .

وبدأ قصيدته بالبُكَاء ، الذي لا يَمْلِكُ دَفْعَهُ ؛ فقد كان « وَقْعُ الصَّدْمَة شديدًا على نفسه ؛ لذا أفقدته اتزانَهُ ؛ فلم يَعُدْ هُنَاك مجالٌ للتأنِّي وصوغ الحِكَم ؛ من أجل ذلك بدأها مُبَاشَرة بالبُكَاء عليه » [29] ، يقول : (طويل)

أَرِقْتُ أَكُفُّ الدَّمْعَ طَورًا وَأَسْفَحُ وَأَنْضَحُ خَدِّي تَارَةً ثُمَّ أَمْسَحُ [30]

كان ابنُ خَفَاجة صادقًا في حُزْنِهِ عَلَى وفاة ابن أخته ؛ فخَرَجَ شِعْرُهُ مِنْ قلبٍ يحترق ودموعٍ تنهمر ، دالَّة عَلَى أَسًى عميق ، لقد اختلف عن غيره من الشعراء في رثائه ؛ وذلك بسبب سيطرة قلق الموت عليه ؛ الذي ظَهَرَ – بِدَورِهِ – في اختيار ألفاظه ، وجَعَلَ القارئُ يُشَارِكُهُ في انفعالِهِ ؛ فيَحْزَن لِحُزْنِه ، ويَبْكِي مَعَهُ ؛ فهو « ينتقي الكلمات ذات السِّمَة التعبيريَّة القويَّة حين يتحدث عن الموت ، وما يُصَاحِبُ ذلك الحديث من شِدَّة وانفعال وحُزْن » [31] .

لقد كان موتُ مُحَمَّد ابن أخته نَكْبَةً كُبْرَى ، هَزَّتْ كِيَانَهُ ، وتَرَكَتْ فِيهِ شَرْخًا لا يَلْتَئِم ؛ فقد مَاتَ شابًّا يانعًا ، يقول في رثائه : (طويل)

وَأَسْتَقْبِلُ الدُّنْيَا بِذِكْرِ مُحَمَّدٍ فَيَقْبُحُ في عَينَيَّ مَا كَانَ يَمْلُحُ
وَأُشْفِقُ مِنْ مَوتِ الصَّبِيِّ ثُمَّ إِنَّنِي لآمُلُ أَنَّ اللَّهَ يَعْفُو وَيَصْفَحُ
غُلامٌ كَمَا اسْتَخْشَنْتَ جَانِبَ هَضْبَةٍ وَلانَ عَلَى طَشٍّ مِنَ المُزْنِ أَبْطَحُ
أَقُولُ وَقَدْ وَافَى كِتَابُ نَعِيِّهِ يُجَمْجِمُ فِي أَلْفَاظِهِ فَيُصَرِّحُ
أَرَامٍ بِأَغْمَاتٍ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ فَيَرْمِي وَقَلْبٌ بِالجَزِيرَةِ يُجْرَحُ [32]

بدأ قصيدته بذرف الدموع ؛ مِن شِدَّةِ حُزْنه على ابن اخته ؛ ومِمَّا أوقدُ نارَ الحُزْنِ في صَدْرِهِ أنه مَاتَ غريبًا ، يفصلُ بينهما بحرٌ هائج وبِيدٌ واسعة ، ويَعُدُّ إقبالُ الليلِ بسوادهِ مبعثًا للهموم ، وإنْ أتى الصباح ؛ فكأنَّ الليلَ يُسْدِلُ سِتَارَهُ عليه ، بوصفه دليلاً على الحُزْن ؛ إذ كثيرًا ما أحزنه هذا الليل ؛ فلم يَعُدْ يرى للسعادةِ سبيلاً .

كُلَّمَا تَذَكَّرَ ابنُ خَفَاجَة ابنَ أُخْتِهِ قَبُحَ في عينيه كل جميل ، وعلى الرغم من أنه يأسف على موته صغيرًا ؛ فَإِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُ ، ويبينُ أنَّ لَحْظَةَ وُصُولِ كِتَابِ

نَعيه كانت صادمة ؛ حيثُ تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَة ، واعتراهُ الذُّهُول ؛ فالموتُ قد رَمَى سَهْمَهُ فأصاب ابن أُخْتِهِ في أغمات ، وأصاب قَلْبَهُ في الأندلس فَأَدْمَاهُ ، يقول : (طويل)

فَيا لَغَرِيبٍ فَاجَأَتْهُ مَنِيَّةٌ ... أَتَتْهُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ تُجَلِّحُ

جَلَسْتُ أَسُومُ الدَّهْرَ فِيهِ مَلامَةً ... وَكُنْتُ كَمَا قَدْ قُمْتُ أُثْنِي وَأَمْدَحُ

تَرَى بِي إِذَا أَعْوَلْتُ حُزْنًا حَمَامَةً ... تُرِنُّ وَطَورًا أَيكَةً تَتَرَنَّحُ

غَرِيقًا بِبَحْرِ الدَّمْعِ وَالهَمِّ وَالدُّجَى ... وَلَو كَانَ بَحْرًا وَاحِدًا كُنْتُ أَسْبَحُ [33]

لقد جعل نَفْسَهُ حمامة تَتَرَنَّم مِنْ شِدَّةِ الحُزْن ، أو أيكة تتمايل من الرياح العاصفة ، بَعْدَ أنْ هَزَّتْهُ نَكْبَةُ الموت ، التي عَبَّر عنها بكلمات صادقة ، مثل : (فَاجَأَتْهُ) ؛ فهي تدل على أن الموت أصاب ابنَ أُخْتِهِ بَغْتَةً عَلَى الرغم من أنه شابٌّ صغير ؛ ولفظة (تُجَلِّحُ) ، التي تدل على القُوَّة في أخذه ؛ فهي بمعنى (صَرَعَهُ) ، وقوله : (أَسُومُ الدَّهْرَ فِيهِ مَلامَةً) ؛ فهو يلوم الدهر على موته ، ولفظة (تَتَرَنَّحُ) ، التي تَدُلُّ على التَّمَايُلِ مِنْ شِدَّةِ الألم ، وقوله : (غَرِيقًا بِبَحْرِ الدَّمْعِ وَالهَمِّ وَالدجَى) ؛ فقد غَرِقَ الشاعرُ في أكثر من بحر : « بحر الدُّمُوع الذي يُسْتَمَدُّ من عينيه ، وبحر الهُمُوم الرابضة على صدره ، وبحر الظلام الذي يَضُمُّه فيزيد من أحزانه ؛ لذا لا يستطيعُ فِكَاكًا أو هُرُوبًا من تلك الأحزان » [34] ، التي أحاطت به من كل ناحية .

ويشتاقُ الشاعرُ إلى مكان ابن أخته في الشَّمَال ، ويحاولُ التَّلَهِّي عن ذلك ، بالنظر نحو الجنوب ، ولكن هيهات ما إلى ذلك سبيل ، يقول : (طويل)

أُحَمِّلُ أَنْفَاسَ الشَّمَالِ حَقِيبَةً ... تَنُوءُ بِهَا مِنْ مَاءِ جَفْنِي فَتَرْزَحُ

فَلِي نَظْرَةٌ نَحْوَ الشَّمَالِ وَلَوعَةٌ ... تَلَدَّدُ بِي نَحْوَ الجَنُوبِ فَأَجْنَحُ

وَخَادَعْتُ عَنْهُ النَّفْسَ ، وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ ... وَرَاوَغْتُ حُسْنَ الصَّبْرِ، والصَّبْرُ أَرْجَحُ [35]

لقد سيطرَ اليَأْسُ عَلَى قَلْبِهِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الآمالُ تَأْخُذُهُ إِلَى الطُّمُوح ؛ فلم يَعُدْ يَنْتَظِر من القادمينَ مِنْ أغمات أن ينقلوا إليه تحياتٍ مِمَّنْ يَعِزُّ عَلَى قَلْبِهِ ؛ وصارَ الليلُ فِي عينيه فرسًا أسود ، والدَّمْعُ المُنْهَمِرُ على خَدَّيهِ أشهبَ يَرْفُضُ السير ، يقول : (طويل)

فَنَمَّ بِأَسْرَارِ الصَّبَابَةِ مَدْمَعِي ... وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالذِي فِيهِ يَرْشَحُ

وَأَيْأَسْتُ قَلْبًا كَانَ يَخشَعُ تَارَةً ... وَتَنْزُو بِهِ الآمَالُ طَوْرًا فَيَطْمَحُ

فَمَا أَتَلَقَّى الرَّكْبَ أَرْجُو تَحِيَّةً ... تُوَافِي لَهُ أَو رُقْعَةً تُتَصَفَّحُ

فَفِي نَاظِرِي لِلَّيلِ مَرْبِطُ أَدْهَمٍ ... وَفِي وَجْنَتِي لِلدَّمْعِ أَشْهَبُ يَجْمَحُ

إِذَا كَانَ قَصْرُ الأُنْسِ بِالإِلْفِ وَحْشَةً ... فَمَا أَشْتَهِي أَنِّي أُسَرُّ فَأَفْرَحُ [36]

وقد وَرَدَ لفظُ (الليل) في القصيدة أربع مرات ، وهناك ألفاظ تُعَبّر عن السَّوَاد أيضًا منها : (بِفَحْمَةٍ ، يَسْوَدُّ ، الدُّجَى ، أَدْهَمٍ ، أَشْهَبُ) ، وتُعَبّرُ هذه الألفاظ عن ليل الشاعر المُظْلِم ، الذي يسيطرُ عليه السوادُ ؛ وذلك بسبب قلقه المَرَضِيّ مِنَ المَوت .

ويخاطبُ الشاعرُ السَّحَابَ المُطِلَّ ، الذي يَسْتَقْبِلُ الليلَ وَالصَّحَارِي ، ويُجَاوِزُ الليلَ والنهارَ ، ويَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَحْمِلَ دُمُوعَهُ لِتَرْوِي قَبْرَه ، ويُرْسِلُ إليه سَلامًا يَعْبُرُ البَحْرَ ، وَيُبَلِّلُ قَبْرَهُ ؛ فتفوح رائحة أزهار البِطَاح ، يقول : (طويل)

فَيَا عَارِضًا يَسْتَقْبِلُ اللَّيلَ وَالفَلا وَيَسْرِي فَيَطْوِي الأَطْوَلَينِ وَيَمْسَحُ
تَحَمَّلْ إِلَى قَبْرِ الغَرِيبِ مَدَامِعًا تَكُبُّ فَتُرْوِي ، أَو تَعُبُّ فَتَطْفَحُ
وَأَحْفَى سَلامٍ يَعْبُرُ البَحْرَ دُونَهُ فَيَنْدَى ، وَأَزْهَارَ البِطَاحِ فَتَنْفَحُ [37]

وتنتهي القصيدة كغيرها من قصائد الرثاء بإرسال الرَّحْمَة للمَيّت ، ويَطْلُبُ مِنَ السَّارِي أَنْ يُلْقِي النظرة الأخيرة على مَثْوَى الفقيد ، نِيَابَةً عَنْه ؛ كي يَهْدَأَ ويَسْكُنَ أَلَمُهُ ، يقول : (طويل)

وَعَرِّجْ عَلَى مَثْوَى الحَبِيبِ بِنَظْرَةٍ تَرَاهُ بِهَا عَنِّي هُنَاكَ وَتَلْمَحُ [38]

وفي الواقع لقد مات أَصْحَاب ابن خفاجة واحدًا بعد واحد ؛ مِمَّا أَفْزَعَهُ ، وجَعَلَهُ يَنْتَظِرُ قُدُومَ المَوتِ يومًا بعد يوم ، ويعترفُ بقِصَرِ الحَيَاة ، وسُرْعَةِ زَوَالِهَا ، ويمكنني أن أقول إِنَّ ابنَ خَفَاجَة هو : « الشاعرُ الوحيدُ الذي تَحَوَّلَتْ عنده تجربة فَقْد الأحباب والأصحاب والأصدقاء واحدًا بعد الآخر إلى مِحْنَة ونَكْبَة ؛ ولذا راح يبكي بصدق هؤلاء الراحلينَ ، ويرثيهم رثاء منكوبٍ مكلوم الفؤاد بسبب رحيلهم عن دنياه ، وراح يشكو مرارة الوَحْدة مِنْ بَعْدِهِمْ » [39] ، وها هو يرثي صَدِيقًا له تُوُفِّيَ فِي إِشْبِيلِيَة ، ودُفِنَ بِهَا ، يقول : (طويل)

فَعِنْدِي لِحِمْصٍ أَيُّ نَظْرَةِ لَوعَةٍ وَلِلنَّجْمِ وَهْنًا أَيُّ نَظْرَةِ مُطْرِقِ
حَنَانًا إِلَى قَبْرٍ هُنَالِكَ نَازِحٍ وَشِلْوٍ عَثَا فِيهِ البِلَى مُتَمَزِّقِ [40]

نلاحظُ من الأبيات السابقة أَنَّ الشاعرَ رَبَطَ الرثاء بعناصر الطبيعة : (الليل ، البرق ، الرياح ، المطر) ؛ فقد حَرَّكَ مَوتُ صَدِيقِهِ وِجْدَانَهُ ، وأفجعه ؛ فعاش النكبة ، وعَبَّرَ عَنْهَا بِصِدْق .

ونَدَبَ إخوانَهُ – في قصيدة أخرى – بِعَقِبِ سَيلٍ عَفَا الدِّيَار ، وتَسَبَّبَ فِي وَفَاتِهِمْ فِي سِنِّ الشَّبَابِ ؛ فاستقروا في القُبُورِ بَدِيلاً من دِيَارهم ، وذَهَبُوا إلى غَيرِ عَودَةٍ ، يقول : (طويل)

أَكُرُّ بِطَرْفِي فِي مَعَاهِدِ فِتْيَةٍ تَكِلْتُهُمُ بِيضَ الوُجُوهِ شَبَابَا

فَطَالَ وُقُوفِي بَينَ وَجْدٍ وَزَفْرَةٍ أُنَادِي رُسُومًا لا تُحِيرُ جَوَابَا
وَقَدْ دَرَسَتْ أَجْسَامُهُمْ وَدِيَارُهُمْ فَلَمْ أَرَ إِلاَّ أَقْبُرًا وَيَبَابَا
وَحَسْبِيَ شَجْوًا أَنْ أَرَى الدَّارَ بَلْقَعًا خَلاءً ، وَأَشْلاءَ الصَّدِيقِ تُرَابَا [41]

لقد ذَرَفَ ابنُ خفاجة الدُّمُوعَ على خِلاَّنِهِ ؛ لِتُظْهِرَ القلق الذى أصابَه لِمَوتِ أَصْدِقَائِهِ ؛ فهو في حَيرَةٍ من أمره ، بعد أنْ أَحَاطَ به الموتُ من كُلِّ اتِّجَاه ، وصَدَرَ رِثَاؤُهُ عَنْ نَفْسٍ قَهَرَتْهَا النَّكْبَة ، وقد كَتَبَ ثلاث قصائد في رثاء الوزير أَبِي مُحَمَّدٍ عبد الله بْنَ رَبِيعَةَ [42] ، وكان صديقه الأثير ؛ حَتَّى اخترمته الوفاة بِعَقِبِ وَفَاةِ جُمْلة من أقرانهما ؛ فقال يتوجَّعُ : (كامل)

وَكَفَى أَسًى أَلاَّ سَفِيرٌ بَيْنَنَا يَمْشِي ، وَأَلاَّ مَوعِدٌ لِلِقَاءِ
لا هَزَّنِي أَمَلٌ ، وَقَدْ حَلَّ الرَّدَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ المَحَلَّ النَّائِي [43]

يعترفُ بأنَّ الزمانَ تَرَكَهُ نهبًا للكآبة ، التي تملأُ نَفْسَهُ ، وتُثْقِلُ صَدْرَهُ ، بعد وفاة صديقه ، وذلك ما يجعله يبكى بغزارة عندما يَمُرُّ بِرَسْمِ دَار ؛ لضياع آماله ؛ فصديقه قد ذَهَبَ بلا عَودَة .

ويرثي جُمْلَة مِنَ الإِخْوَان الأَعْيَان ، تَلاحَقُوا فِي أَقْصَرِ مُدَّة مِنَ الزَّمَانِ سنة 514هـ ، وكان عِنْدَئِذٍ في الرابعة والسِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ ، يقول : (طويل)

كَفَانِيَ شَكْوَى أَنْ أَرَى المَجْدَ شَاكِيَا وَحَسْبُ الرَّزَايَا أَنْ تَرَانِي بَاكِيَا
أُدَارِي فُؤَادًا يَصْدَعُ الصَّدْرَ زَفْرَةً وَرَجْعَ رَنِينٍ يَجْلِبُ الدَّمْعَ سَاجِيَا
وَكَيْفَ أُوَارِي مِنْ أُوَارٍ وَجَدْتُنِي لَهُ صَادِرًا عَنْ مَنْهَلِ المَاءِ صَادِيَا [44]

يستهلُ الشاعرُ القصيدةَ بمطلع يُظْهِرُ ضَعْفَهُ ؛ حيثُ يَشْكُو المُصَابَ الذي حَلَّ بِهِ ؛ بسبب رحيل إخوانه ، الذين يُحَدِّثُهُمْ ؛ فلا يجدُ جَوَابًا ؛ فيخفض صَوتَهُ ، ويُطْلِقُ عَبْرَتَهُ ، يقول : (طويل)

أَإِخْوَانَنَا بِالعُذْوَتَينِ صَمِمْتُمُ بِحُكْمِ الرَّدَى عَنْ أَنْ تُجِيبُوا مُنَادِيَا
فَقَيَّدْتُ مِنْ شَجْوِي ، وَأَطْلَقْتُ عَبْرَتِي وَخَفَّضْتُ مِنْ صَوتِي هُنَالِكَ شَاكِيَا [45]

يصفُ الشاعرُ – في هذه الأبيات – لياليه السالفة مع أصدقائه ؛ فقد كانت مُزْدَانَة بِالمَحَاسِنِ ، ولكنها ذَهَبَتْ دُونَ رُجُوعٍ ، ولم يَبْقَ لَهُ إِلاَّ الحُزْن ، الذي يُنَغِّصُ عَلَيهِ حَيَاتَهُ .

لقد توالت عليه المصائب ؛ فلم يَعُدْ يَتَحَمَّلَهَا ، يقول في رِثَاءِ أَحَدِ خِلاَّنِهِ : (طويل)

أَفِي كُلِّ يَومٍ رَجْفَةٌ لِمُلِمَّةٍ ؟ بِفَقْدِ خَلِيلٍ يَمْلأُ العَينَ مُؤْنِسِ
أَبِيتُ لَهُ تَنْدَى جُفُونِيَ لَوعَةً كَمَا دَمَعَتْ تَحْتَ الحَيَا عَينُ نَرْجِسِ [46]

يُوَضِّحُ الشاعرُ حَقِيقَةَ ذاتِهِ القلقة المُتَوَتِّرَة ، التي تُصِيبُهَا الرَّجْفَة عند سماعه خبر وفاة أحد خِلاَّنِهِ ؛ حيثُ لَمْ يَعُدْ يَمْلُكُ إلاَّ « ذِكْرَى تُصَدِّعُ حَصَاةَ الْقَلْبِ ، وَتُؤْذِنُ بِالظَّعْنِ فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ الرَّكْبِ » [47] ، يقول في رثاء صديق له : (طويل)

تَيَقَّنَ أَنَّ اللهَ أَكْرَمُ جِيرَةً فَأَزْمَعَ عَنْ دَارِ الحَيَاةِ رَحِيلا
فَإِنْ أَقْفَرتْ مِنْهُ العُيُونُ فَإِنَّهُ تَعَوَّضَ مِنْهَا بِالقُلُوبِ بَدِيلا
وَلَمْ أَرَ أُنْسًا قَبْلَهُ عَادَ وَحْشَةً وَبَرْدًا عَلَى الأَكْبَادِ عَادَ غَلِيلا
وَمَنْ تَكُ أَيَّامُ السُّرُورِ قَصِيرَةً بِهِ كَانَ لَيلُ الْحُزْنِ فِيهِ طَوِيلا [48]

يبدأ الشاعرُ بالحديث عن إيمانِ صَدِيقِهِ بأنَّ جِيرَةَ اللهِ أَعْظَمُ ؛ لذا صَمَّمَ على الرحيل عن الدنيا ؛ فإن حُرِمَتِ العُيُونُ مِنْ رُؤْيَتِهِ فَمَكَانُهُ بِالقُلُوبِ ، ويؤكدُ أنَّهُ لا يليق بالأُلْفة أنْ تصيرَ انقطاعًا وبُعْدًا ؛ فيتذكر أيامَهُ السعيدة مع صديقه ، ويعترفُ بِطُولِ لَيل الحُزْنِ على فقده ، ويَصِفُ حُزْنَهُ على موت صديقه بألفاظٍ مُؤَثِّرة ، وَقْعُهَا حَزِينٌ عَلَى النَّفْس ، منها : (رَحِيلا ، أَقْفَرتْ ، وَحْشَة ، غَلِيلا ، ليلُ الحُزْنِ) ، وغيرُ خَافٍ أَنَّ هذا الحزن المُسَيطِر عَلَى الشاعر لم يكن ليحدث لولا نفسيته المضطربة ؛ لسيطرة قلق الموت عليه .

ولقد أكثر ابن خفاجة من رثائه للأحبة الراحلين عنه ، وكان رثاؤه لهم مُبْكِيًا ؛ لأنه مَكْلُومٌ تَرْجَمَ عَنْ وِجْدَانٍ صَادِق ، وعَاطِفة جَيَّاشة ، ولمْ يَرْثِ مُجَامَلَةً ولا تَمَلُّقًا ، وكان كثيرًا ما يَرْبِطُ عَنَاصِرَ الطبيعة من : (برق ، ورعد ، وغمام ، ورياح) بهذا الرثاء .

*** شَيبُ الرَّأْسِ :**

لقد تَنَاوَلَ ابن خفاجة قضية الموت بوصفها فِرَاقًا للحياة بكل ما فيها من مُتَعٍ ومَلَذَّات ، وكَرِهَ ظُهُورَ الشَّيب ، وعَدَّهُ دالاًّ على اقتراب الأَجَل ، يقول في بكاء شبابِهِ الذاهب ، الذي « أقفر ؛ فأصبح العِذَارُ فِي وَجْهِهِ آثارًا دَارِسَة ، وصارت الخِيلانُ فِيه أثافي سُودًا ، وهذا يؤكد ... أنَّ المَحَلَّ قد أقفر من أهله ، ويَعْنِي الفراغ والعدم الذي يُسَبِّبُهُ الرحيل أو الموت ، وهُمَا مُتَقَارِبَانِ ؛ إذ الرحيلُ من بعض معانيه الموت » [49] ، يقول : (كامل)

أَقْوَى مَحَلٌّ مِنْ شَبَابِكَ آهِلٌ فَوَقَفْتُ أَنْدُبُ مِنْهُ رَسْمًا عَافِيَا
مَثَّلَ الْعِذَارُ هُنَاكَ نُؤْيًا دَائِرًا وَاسْوَدَّتِ الخِيلانُ فِيهِ أَثَافِيَا [50]

إنَّ إِحْسَاس ابن خفاجة بالزمن جعله لا يَكُفُّ عن النحيب ؛ لأنه رَأَى فِي إدبارِ شَبَابِهِ نذيرًا بقُرْبِ النِّهَايَة ، وذلك ما عَبَّرَ عنه في قصيدته التي رَثَى فيها أَبَا مُحَمَّدِ بْنَ رَبِيعَةَ ، لقد نظر إلى الحياة في شيخوخته فرآها سَرَابًا ؛ فبكى شبابَهُ ، الذي وَلَّى إِلَى غَيرِ

إِيَاب ، وبكى ذَهَابَ خِلانِه وأقرانه ؛ فأصدقاء الشباب لا ينوبوا عن أصدقاء الشيب كما لا ينوبُ خِضَابُ الشَّعْرِ عَنْ سَوَادِهِ ، وقد ربط بكائه لأصدقائه ببكائه لشبابه ، يقول : (طويل)

فَمَا نَابَ عَنْ خِلِّ الصِّبَا خِلُّ شَيبَةٍ وَلا عَاضَ مِنْ شَرْخِ الشَّبَابِ خِضَابُ

أَلا ظَعَنَا مِنْ صَاحِبٍ وَشَبِيبَةٍ فَهَلْ لَهُمَا مِنْ ظَاعِنَيْنِ إِيَابُ [51]

وقال عند ظهور الشيب في رأسه أول مرة : (وافر)

وَأَيَّةُ شَيبَةٍ إِلاَّ نَذِيرٌ فَهَلْ طَرَبٌ وَقَدْ مَثَلَتْ خَطِيبَا

وَنَؤْتُ بِحَمْلِهَا مِنْ عِبْءِ خَطْبٍ كَأَنِّي قَدْ حَمَلْتُ بِهَا عَسِيبَا

وَمِلْتُ عَلَى الشَّبَابِ عَنِ التَّصَابِي وَكَيْفَ بِهِ وَقَدْ طَلَعَتْ رَقِيبَا [52]

الشيبُ نذيرٌ وخطيبٌ يَعِظُ ؛ فالشباب ارتبط عنده بالتصابي واللهو ، والشيبُ رَقِيبٌ يَمْنَعُهُ مِنْ كَسْبِ الذُّنُوبِ ، يقول : (طويل)

وَقَدْ خَفَّ خَطْبُ الشَّيبِ فِى جَانِبِ الرَّدَى فَصَارتْ بِهِ الصُّغْرَى الَّتِى كَانَتِ الكُبْرَى [53]

فالشاعر يخاف من الشيب لأنه هو المعبر الذي يؤدي به إلى الموت ؛ فالشيب أخف وقعًا له عن الموت .

وعندما بَلَغَ سِنَّ الشيبِ غَيَّرَ مَسْلَكَهُ فِي الحَيَاة ؛ « فَلَمَّا اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيبًا ، وَزَرَّتْ عَلَيهِ الكُهُولَةُ جَيبًا ، أَقْصَرَ عَنْ تِلْكَ الهِنَاتِ ، وَاسْتَيقَظَ عَنْ تِلْكَ السِّنَاتِ ، وَشَبَّ عَنْ ذَلِكَ الطَّوق » [54] ،

ويعد ابن خفاجة من أكثر الشعراء صراخًا فى وجه الشيب ،إذ عاش عمرًا طويلًا فقضى شبابه فى اللهو والمجون فكان الشيب بداية انحطاط قوته وتحوله إلى الزهد فى الدنيا، وهذا ماعبر عنه ابن خفاجة فظهور الشيب عنده ، يؤدى إلى فقد كل لذة فى الحياة لأنه نذير بدنو الأجل وفقدان الحياة .

والشاعر يكره كل ما له علاقة بالشيب شبهًا أو نسيبا أو لونًا ويشعر بالغربة غربة لون شعره الأسود بعد انتشار الشيب به ؛ فقد ارتبط الشيب عنده بالموت ، وبانتهاء عهد الشباب .

ويُظهر الشاعر عبء تحمله لهذا الزائر الثقيل الدائم ويظهر ثقله على نفسه كأنه يحمل جبل عسيب.

فقد أدرك برؤيته للشيب فناء الدنيا وقرب الرحيل فتوجه إلى الشعر يبثه حُزنه على شبابه ، لذا أكثر من ذكره للشيب ؛ فالشيب يُشْعِرُهُ بقرب النهاية.

*** عُزُوفُهُ عَنِ الزَّوَاجِ :**

الزواج آية من آيات الله تعالى ، وسَكَنٌ لِلنَّفْس ، ومِيثَاقٌ غليظ ، وهو أَمْرٌ لا مَفَرَّ مِنْـهُ ، وَوَسِيلَة لإنجـاب الأبنـاء ، وتَعْزِيـز الـروابط بـين أفـراد الأسـرة ، وينظـر المجتمـع الأندلسيّ إلى مَنْ تَخَلَّى عنه نظرة الارتياب ، ويَشُكُّ في سُلُوكِهِ الاجتماعيّ ، وعلى الرغم من ذلك فهناك كثيرٌ من الرجال فَضَّلُوا حياةَ العُزُوبَة قَصْدَ التفرُّغ لطلب العلم والتحصيل ، أو تَخَوُّفًا مِمَّا يفرضه الزواج من واجبات جسيمة [55] .

وغيرُ خَافٍ أنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أَنْ يَعِيشَ إلاَّ في علاقة مع الآخر ، « حَقًّا إِنَّ المَرْءَ يُولَدُ بِمُفْرَدِهِ ، وَيَمُوتُ بِمُفْرَدِهِ ، ولكنه لا يحيا إلا مع الآخرين وبالآخرين وللآخرين » [56] .

لقد عانَى ابنُ خفاجة « من الوَحْدَةِ كثيرًا ؛ وَمِمَّا زَادَ في ذلك عُزُوفِهِ عن الزواج ؛ فبات بِمَعْزَلٍ عن الشريك والولد ، خالي البال ، صافي الذهن ، ومن جهة أُخْرَى فقد أسهم ذلك في تَوَقُّدِ حِسِّهِ وتَعَمُّقِ بَوَاطِنه » [57] ، وقد أدى ذلك إلى تفكيره كثيرًا في الموت

لم يتزوج ابن خفاجة قَطُّ ، ولا نَظُنُّ أَنَّ الأمور الماليَّة هي السبب ؛ لأَنَّهُ كان ميسور الحال ، يَمْتَلِكُ ضَيعَةً ، وَرِثَهَا عَنْ وَالِدِهِ ، يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى نفسه ، وقد استمتع بِضُرُوبٍ شَتَّى من لهو وخمر ونساء وفِتْيَان ، وعاش حياة عابثة اغتنم فيها سائر الملذات ؛ فقد يكون ذلك سبب من أسباب عدم زواجه .

ورُبَّمَا أَحْجَمَ عَنِ الزواج بسبب الحياة السياسية المضطربة في عصري : ملوك الطوائف والمُرَابِطِينَ .

وقد يكون من أسباب عدم زواجه أنه لم يَجِدْ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تُنَاسِبُهُ ، وتستحوذ على إعجابه ؛ لأنه يُدَقِّقُ في اختيار الأشياء ، ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ الضَّبِّي ؛ حيثُ أَكَّدَ أَنَّهُ كان يذهب « إلى المُعَالِجِ الذِي يَبِيعُ الفَاكِهَة ؛ فَيُسَاوِمه ؛ فَإِذَا سَمَّى لَهُ عَدَدًا أَو وَزْنًا ، نَقَصَهُ مِنْ ذَلِكَ العَدَد أو الوَزْن ، عَلَى شَرْط أَنَّهُ يَخْتَار مَا أَحَبَّ بِيَدِهِ » [58] .

لقد عَاشَ ابن خفاجة وَحِيدًا ، ولم يَجِدُ مَنْ يُؤْنِسُ وَحْشَتَهُ ، ويُسَانِدُهُ وَقْتَ الشِّدَّة ؛ مِمَّا وَلَّدَ صِرَاعًا باطنيًّا حادًّا في داخله ، ورَسَّخَ فِي نَفْسِهِ الشعور بقلق الموت ، وقد أَفْرَغَ هَذَا الشُّعُورَ بالوَحْدَة فِي مَظَاهِرِ الطبيعة ، التي نَظَرَ إليها نَظْرَةً مُخْتَلِفَة ؛ فَرَأَى الحَيَاة والموت في مظاهرها ، واتخذها زوجًا وولدًا ، يَبُثُّهَا حُزْنَهُ ، ويَقُصُّ عَلَيهَا مَخَاوِفَهُ ، ويُنَاجِيهَا .

المَبْحَثُ الثَّانِي : البَوَاعِثُ السِّيَاسِيَّةُ :

* سُقُوطُ طُلَيطُلَة سَنة 478هـ :

لَمَّا تُوُفِّيَ المَأمُون بْن ذِي النُّون (ت467هـ) خَلَفَهُ حَفِيدُه المُلَقَّب بالقَادِر (ت485هـ) في حُكْم طُلَيطُلَـة ، وأصـبح الاسـتيلاء علـى طُلَيطُلَـة هـدف ألفونسـو السـادس (أَذْفُـونَش بـن

فَرْذِلَنْد) (Sagrajas) ملك قَشْتَالَة (Castilla) (ت502هـ) ؛ حَتَّى سقطت المدينة سنة 478هـ [59].

لم يَهُبُّ مُلُوكُ الطَّوَائِفَ لنجدة طُلَيطُلَة ، « وكأنَّ الأمرَ لا يخَصُهُمُ ... بل إن عددًا منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونس السادس ، طالبًا عونه ... وتغافلوا عن أن ألفونسو لا يُفَرّقُ بين طُليطُلَة وغيرها من القَوَاعد الأَنْدَلُسِيَّة ... كان بعضهم لا هَمَّ لَهُ إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته » [60] ، ولا شَكَّ في أَنَّ سُقُوطَ طُلَيطُلَة « أشار إلى المخاطر المُحِيطَة بالأندلس ؛ فالأمر لا يَتَوَقَّف عند سقوط طُلَيطُلَة ، بل هو سقوط أوَّل حَجَر مِنَ الصَّرْح » وكان رَدَّ فعل ابن خفاجة إزاء هذا الحدث المُدَوّي ، الذي هَزَّ الأندلس من مَشْرِقِهَا إلى مَغْرِبِهَا ، هو الصمت ، بعد أن سيطر عليه الحُزْن العَمِيق لضعف مُلُوك الطَّوَائف وتَخَاذلهُمْ ، ولكن غَيرَهُ من الشعراء أدلى بِدَلْوِهِ ، وأسهم في التعبير عن هذه الفاجعة .

يقول **أحد شعراء الأندلس** يَنْدُبُ طُلَيطُلَة : (وافر)

لِثُكْلِكِ كَيفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُرُورًا بَعْدَمَا سُبِيَتْ ثُغُورُ [61]

يتفجعُ الشاعرُ لانقلاب الأوضاع ؛ فكيف تَبْتَسِمُ الأفواهُ بَعْدَمَا سُبيت النِّسَاء ، ويتحسر لضعف المسلمين ، واستسلام القادة ، وعدم التحرُّك لإنقاذ طُلَيطُلَة ، يقول : (وافر)

طُلَيطُلَةٌ أَبَاحَ الكُفْرُ مِنْهَا حِمَاهَا ، إِنَّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ

فَلَيسَ مِثَالَهَا إِيوَانُ كِسْرَى وَلا مِنْهَا الخَوَرنَقُ وَالسَّدِيرُ

مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بَعِيدٌ تَنَاوُلُهَا ، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ

أَلَمْ تَكُ مَعْقِلاً للدِينِ صَعْبًا فَذَلَّله كَمَا شَاءَ القَدِيرُ [62]

يَحْزَنُ الشاعرُ لِسُقُوط طُلَيطُلَة ؛ فاستيلاءُ النصارى عليها نبأٌ عظيم ؛ فَهِي حِصْنٌ مَنِيعٌ قَوِيّ ، يَصْعُبُ الاستيلاءُ عليها ، ولكنه قَدَرُ اللهِ ، ويصف حال المدينة بعد سقوطها ، يقول :(وافر)

وَكَانَتْ دَارُ إِيمَانٍ وَعِلْمٍ مَعَالِمُهَا التِي طُمِسَتْ تُنِيرُ

فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاةٍ قَدِ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِيهَا الأُمُورُ

مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ ، أَيُّ قَلْبٍ عَلَى هَذَا يَقَرُّ وَلا يَطِيرُ ؟

فَيَا أَسَفَاهُ يَا أَسَفَاهُ حَزَنًا يُكَرِّرُ مَا تَكَرَّرَتِ الدُّهُورُ [63]

كانت مدينة مُنِيرَة بِالعِلْم والإيمان ، وأصبحت دارًا للكفر ؛ فالنصارى جعلوا المساجدَ كنائسَ تُقْرَعُ فِيهَا الأَجْرَاس ، ويَأْسَفُ الشاعرُ على هذا .

وقام المُعْتَمد بْن عَبَّاد (ت488هـ) ، أمير إشْبِيلِيةَ ، باستدعاء يُوسُف بْن تاشفين (ت500هـ) ، زعيم المُرَابِطِينَ في مَرَّاكُش (Marrakech) طالبًا منه نَجْدَة طُلَيطُلَة ، وعلى

إثر استدعاء المرابطين للأندلس تَغَيَّرَتِ الأحوال ، وقامت معركة الزَّلاقَة بين المسلمينَ (المرابطينَ والأندلسيينَ) ، وقُوَّات قَشْتَالَة سنة 479هـ [64] ، وانتصرَ المُسْلِمُونَ ، وذَاقَ العَدُوُّ خسائرَ فادحة .

* حِصَارُ بَلَنْسِيَة (487هـ – 495هـ) :

ارتبط حصار بَلَنْسِيَة وتخريبها وإذاقة أهلها ألوان من العذاب ؛ بتاريخ فارس قَشْتَالي مُغامر يبحث عن طالعه ويسعى لِمَغْنَمِهِ ، اسمه رودريجو (رُذْرِيق) دياث دي فيفار (Rodrigo Diaz de Vivar) ، ويلقب بالسيد القَنْبِيطُور (El Cid Campiador) (ت493هـ) [65] كتب رُذْرِيق « إلى ابن جَحَّاف أنْ يَتْرُكَ بَلَنْسِيَة له بَعْدَ إِخْرَاجِ المُرَابِطِينَ منها ، وكانت تلك خديعة يَقصد من ورائها إضعاف المدينة حين يعود لمحاصرتها ، وجرت بينهما مفاوضات انتهت بأن تُدْفَعَ لِلطَّاغِية رُذْرِيق الأموال السنويَّة ، وتَخْرُج قُوَّة المُرَابِطِينَ ، ويَتْرُكُ الجيشُ القَشْتَالِي المدينة ؛ لكن رُذْرِيق نَقَضَ العَهْدَ بَعْدَ مُدَّةٍ قَلِيلَة ، وبَدَأَ عَيثُهُ خَارج بَلَنْسِيَة ، وإِرْهَاق ابن جَحَّاف بمطالبه الماديَّة ، وطلب أن ينزل هو وجيشه في مناطق حول بَلَنْسِيَة ، شمال شرقها وجنوب غربها ، لِيُحْكِم الطوق حول المدينة ، ثُمَّ زَادَ فَطَلَبَ من ابن جَحَّاف أنْ يُسَلِّمَهُ مَوَارِدَ المَدِينة ، ويُقَدِّمُ ابْنَهُ رَهِينَة ؛ فرفض ابن جَحَّاف المَطَالِب ، وأَغْلَقَ أَبْوَابَ المدينة ... وشَدَّدَ الطاغيةُ الحِصَارَ حَولَ المَدِينَة الباسلة ، وكَثُرَ عَيثُه حولها ، وَقَطَعَ الأَقْوَاتَ عَنْهَا ، لكن ابن جَحَّاف قَرَّرَ المُقَاوَمَة حَتَّى النهاية ، ولَمْ يَصِلْ إلى المدينة أيّ مَدَد خارجيّ ، واستمر الحِصَارَ عِشْرِينَ شَهْرًا » [66] .

وفُتِحتْ أبواب بَلَنْسية له في يوم الخميس منسلخ شهر جُمَادَى الأُولَى سنة 487هـ ، وَحَوَّلَ الطاغيةُ مَسْجِدَ بَلَنْسيةَ الجامع كَنِيسَةً [67] ، وقد أحرق الرُّومُ مَدِينة بَلَنْسِيَة عند خُرُوجِهم مِنْهَا سنة 495هـ [68]

ولقد كانت بَلَنْسِيَة « جزءًا من معاهد ابن خَفَاجَة وعُهُوده وأُمّ وطنه شُقْر ؛ فلا بُدَّ من أن يكون ضياع بَلَنْسِيَةَ قَدْ حَزَّ في نفسه » [69] ، وقد وصف ابنُ خَفَاجَة حال بَلَنْسِيَةَ ، بعد أن أحرقها النصارى ، يقول : (كامل)

عَاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَى يَا دَارُ وَمَحَا مَحَاسِنَكِ البِلَى وَالنَّارُ
وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنابِكِ نَاظِرٌ طَالَ اعْتِبَارٌ فِيكِ واسْتِعْبَارُ
أَرْضٌ تَقَاذَفَتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا وَتَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْدَارُ
كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا (لا أَنْتِ أَنْتِ وَلا الدِّيَارُ دِيَارُ) [70]

عَبَّرَ الشَّاعِرُ عن حُزْنِه لِسُقُوط بَلَنْسِيَة وإحراقها على يد النصارى ، ووَصَفَ الدَّمَارَ الذي لَحِقَ بالمدينة ؛ حَتَّى طُمِسَتْ مَلامِحُهَا ، ومُحِيَتْ مَعَالِمُهَا ، وقَارَنَ بين حالها قبل السقوط وبعده ؛ وتَمَلَّكَت الحَسْرَةُ قَلْبَهُ ، وقد اعتمد على مجموعة من الألفاظ أبانت عن عاطفته المُتَأَجِّجَة بسبب حريق بَلَنْسية ، ومنها : (عَاثَتْ ، الْعِدَى ، مَحَا ، البِلَى ، النَّارُ ، اسْتِعْبَارُ ، تَقَاذَفَت ، الخُطُوبُ ، خَرَابِهَا ، الحَدَثَانِ) ؛ فهي كلمات مُؤَثِّرة ، تُعَبِّرُ عن عميق الحُزْن الذي يُمَزِّقُ نِيَاطَ قَلْبِهِ ؛ لأنَّ سُقُوطَ بَلَنْسِيَة جعله يتذكرُ أَيَّامَ الصِّبَا مع أهله وأصدقائه ، وهي ذكريات لا تُنْسَى ؛ فَتَذَكَّرَ الأَمَاكِنَ التي تَجَوَّلَ فيها في طفولته ، وكيف صارت خرابًا تبكي له العيون بالدم ؛ فيصفُ الشَّاعرُ المدينة ، التي صارت عِبْرَة لِمَنْ يَنْظُرُ إِليهَا ؛ فقد صارت خرابًا بعد أن عبثت بها يدُ الأقدارِ .

ولا شَكَّ فِي أَنَّ ما شَاهَدَهُ ابنُ خَفَاجَة مِنْ حِصَارٍ وتخريب لوطنه بَلَنْسِيَة ، وَضَعَ نُصْبَ عَينَيهِ الحقيقة القائلة إِنَّ الموتَ هو الحَقِيقَة المُؤَكَّدة في الحياة ، التي لا مَفَرَّ مِنْهَا .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ : البَوَاعِثُ الاجْتِمَاعِيَّةُ :

* فَسَادُ المُجْتَمَعِ :

ومن دلائل فساد عصر ملوك الطوائف أنه عندما سقطت طليطلة حَلَقَ الفقيه أبو القاسم بن الخياط وَسَط رأسه ، وشد الزُّنَّار ، وعمل كاتبًا عند الأُذْفُونِش [71] .

إنَّ عَصْرَ مُلُوكِ الطوائف « فَرَسٌ بَهِيمُ الشِّيَة ، مَا إِنْ يُبَاهِي بِقُرْحَةٍ فَضْلاً عَنْ شُدُوخِ غُرَّة ، قَدْ غَرْبَلَ أَهْلَيه أَشَدَّ غَرْبَلَة ؛ فَسَفْسَفَ أَخْلاقَهُمْ ، وَاجْتَثَّ أَعْرَاقَهُمْ ، وَسَفَّهَ أَحْلامَهُمْ وَخَبَّثَ ضَمَائِرَهُمْ ؛ فَاحْتَوَى عَلَيهِمْ الجَهْلُ ، وَاقْتَطَعَهُمْ الزَّيفُ ، وَأَرْكَسَتْهُمْ الذُّنُوبُ ،وَوَصَمَتْهُمُ العُيُوبُ ؛ فَلَيسوا فِي سَبِيلِ الرُّشْدِ بِأَتْقِيَاء ، وَلا عَلَى مَعَانِي الغَيِّ بِأَقْوِيَاء ، شَاءٌ مِنَ النَّاسِ هَامِلٌ ، يُعَلِّلُونَ نُفُوسَهُمْ بِالبَاطِلِ ، مِنْ أَدَلِّ الدَّلائِلِ عَلَى فَرْطِ جَهْلِهِمْ بِشَأْنِهِمْ ، اغْتِرَارِهِمْ بِزَمَانِهِمْ ، وَبُعَادِهِمْ عَنْ طَاعَةِ خَالِقِهِمْ ، وَرَفْضِهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِهِ نَبِيِّهِمْ عَلَيهِ السَّلامُ وَذُهُولِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ ، وَغَفْلَتِهِمْ عَنْ سَدِّ ثَغْرِهِمْ » [72] .

لجأ ابن خفاجة إلى الطبيعة بوصفها ملاذًا له يحتمي به من فساد المجتمع ، وما يعج داخله من النفاق والخداع ؛ فقد مَثَّلَتْ بالنسبة إليه مكانًا تنتفي فيه صُورَ التَّنَاقُض .

ومن مظاهر فساد المجتمع إسناد الأمر إلى غير أهله ؛ فيرتفع الأراذل ، وينحط أهل الفضائل ، يقول شاكيًا الدهر : (كامل)

مَا لِلزَّمَانِ يَجُورُ فِي أَبْنَائِهِ حُكْمًا ، وَيَرْمُقُهُمْ بِعَينِ العَائِبِ

لِيَحُطَّ عُلْوَهُمُ ، وَيَرْفَعُ سُفْلَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ قَلَمٌ بِيُمْنَى كَاتِبِ [73]

ولم يَعُدْ هناك مكان للمبادئ العُلْيا والقيم الإنسانية الراقية ؛ لذا عبر شعراء الأندلس عن فساد الحياة والأحياء ، وتذمروا من هذا الفساد ، وأعلنوا ضيقهم الشديد به .

وقد كشف الشعراء فساد الفقهاء ، وأظهروا حِيلِهم في معاملتهم ، والتستر وراء الدين بغرض كسب الأموال.

* الاغْتِرَابُ النَّفْسِيّ :

أُسْتُخْدِمَتْ كلمة الاغتراب (Alienation) في العلاقات الإنسانيَّة ؛ لتدل على الإحساس الذاتي بالغُرْبَة ، أو الانسلاخ (detachment) عن الذات أو الآخرين [74] .

ويُعَانِي المُغْتَرِب من قلق تجاه كل مألوف ، أو تجاه الأزمات ؛ فيصاب بالسأم والاضطراب والتوتُّر ، ويَقِلُّ إنتاجه ، وهذا يعنى أنَّ اغترابَ المَرْءِ عن المكان ، يُعَدُّ مُفَارقة نفسيَّة واجتماعيَّة ومكانيَّة وزمانيَّة ؛ من أجل استعادة الذات [75] .

وينتقل الصراع – في الاغتراب النفسيّ – بين الذات والموضوع من المسرح الخارجيّ إلى المسرح الداخليّ في النفس الإنسانية ، إنه اضطراب في علاقة الذات بالموضوع على مستويات ودرجات مختلفة تقترب حينًا من السواء ، وحينًا آخر من الاضطراب ، وقد تصل إلى اضطراب الشخصية [76] .

ويفتقرُ الشخصُ المغتربُ إلى الإحساسِ بالذاتِ ، وذلك يَخْلُقُ قلقًا عميقًا ، والقلق الذى تُحدُثه مجابهتهُ لهاوية العدم أشد من عذاب جهنم ، ويجعل المرءُ يَنْسَاقُ طَوَاعِيَّةً إلى حافة الجُنُون [77] .

يَشْعُرُ « الإنسانُ في بَعْضِ الأحيان أنه غريبٌ عن المكان الذي يعيش فيه ، وأنه غريب عن الزمان الذي يعيش فيه ؛ فهو في مكان غير مكانه ، أو زمان غير زمانه ؛ ولذا يَشْعُرُ بِالأَسَى والحسرة » [78] .

عندما شَعَرَ بالاغتراب النَّفْسِيّ ، لَجَأَ إلى اللهِ لِيُفَرِّجَ كَرْبَهُ ، ويُنْقِذَهُ مِنْ وَحْشَتِهِ : (طويل)

وَحَسْبِي إِذَا مَا أَوْحَشَتْنِيَ كُرْبَةٌ بِمُؤْنِسِ يَعْقُوبٍ وَمُنْقِذِ يُونُسِ [79]

يسألُ الشاعرُ اللهَ أنْ يُعِينَهُ على مُصِيبَتِهِ ، كما آنَسَ يَعْقُوبَ عليه السلام ، وأَنْقَذَ يُونُسَ في بَطْنِ الحُوتِ .

الخاتمة ونتائج البحث

لقد عرضت أسباب قلق الموت عند ابن خفاجة مُسبقة بتمهيد تناولت فيه تعريف مصطلح قلق الموت والنظريات المُفسِرة له ونُبْذة عن حياة الشاعر ابن خفاجة ، ونستطيع أن نستخلص عدة نتائج ، منها :

وقد أمضى شبابه في حياة اللهو والمجون ؛ فقد قَرَعَ بَابَ الحَانَاتِ ، وشَرِبَ الخَمْر ، وتَغَزَّلَ بِالمُذَكَّرِ ، وكانت الطبيعة بكل ما فيها من : أشجار ورياض وأزهار وجبال وأنهار ضَاحِكَة طَرُوب ، يَتَغَنَّى بِجَمَالِهَا ، وَيَتَفَنَّنُ فِي وَصْفِ مَظَاهِرِهَا البَدِيعَة .

إن الحياة الاجتماعية والأحداث السياسية التي مرت بها الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، وسقوط طُلَيطِلةُ والخراب الذي بِبَلَنْسِية ، قد أثر على الشاعر فحدثت له صدمة ؛ فتوقف عن قول الشعر مُدة من الزمان .

كان ابن خفاجة في رثائه صادق العاطفة ، يعبر بصدق عن هول مصيبته بفقد من أحبهم سواء كان ابن أخته أو أصدقائه.

أغلب قصائد الرثاء الذى ذُكر فيها الموت كانت في رثاء الوزير ابن ربيعة حيث كانت تربطه به علاقة صداقة قوية

تَأَمَّلَ الشاعر حَالَهُ ، وما ينتظره ، وبَدَأَ التَّشَاؤُمُ يَدِبُّ رويدًا في نفسه ؛ بسبب الحروب المُسْتَمِرَّة ؛ حيثُ فَقَدَ الاطمئنانَ ، وأصبح غير مستقر ، وعاد إلى قول الشعر ، بعد أنْ وَجَّهَهُ وِجْهَةً مُغَايِرَة وغَلَبَتْ عليه الأغراضُ الشعريَّةُ الدالَّة على الحُزْن والقَلَق ، مثل : (شكوى الدهر – الزهد – الرثاء – الحنين إلى الوطن)

فقد ابن خفاجة قدرته على التمتع بملذات الحياة تمامًا بعد تمكن قلق الموت منه بأعرض عن المجون ، وظهرت في شعره أغراض ، (الاندماج التام بالطبيعة والاحساس الحاد بالزمن ورثاء النفس والوقوف بالمقابر)

الحواشي

(1) انظر : أحمد محمد عبد الخالق : قلق الموت ، سلسلة عالم المعرفة (111) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مارس 1987م ، ص 39 .

(2) انظر : المرجع نفسه ، ص الصفحة نفسها .

(3) انظر : المرجع نفسه ، ص 52 - 53.

(4) المرجع نفسه ، ص 43 .

(5) المرجع نفسه ، ص 50 .

(6) المرجع نفسه ، ص 39 .

(7) انظر : موشى زيدنر وجيرالد ماثيوس : القلق ، ترجمة معتز سيد عبد الله ، الحسين محمد عبد المنعم ، سلسلة عالم المعرفة (437) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يونيو 2016م ، ص 111 .

(8) انظر : نهى الصادق أحمد حسن : فاعلية العلاج بالموسيقى في تخفيف اضطراب القلق ، ص 103 . فاروق السيد عثمان : القلق وإدارة ضغوط الحياة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط1 ، 2001م ، ص 25

(9) انظر : فاروق السيد عثمان : القلق وإدارة ضغوط الحياة ، ص 25 .

(10) حسين فالح حسين : علم النفس المرضي والعلاج النفسي ، مراجعة محمود كاظم محمود ، مركز ديبونو لتعليم التفكير ، المملكة الأردنية الهاشمية ، ط 1 ، 2013م ، ص33.

(11) انظر : أحمد محمد عبد الخالق ، مايسة النيال : الدافع للإنجاز وعلاقته بقلق الموت لدى طلاب من دولة قطر ، مجلة دراسات نفسية ، رابطة الاخصائيين النفسيين المصرية ، القاهرة ، مج (12) ، عدد (3) ، يوليو 2002م ، ص 385 .

(12) انظر : ابن خَلِّكَان : وَفَيات الأعيان وأَنْبَاء أَبْنَاء الزَّمَان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1970م ، 57/1 .

(13) انظر : ابن خَاقَان : قَلائِد العِقْيَان ومحاسن الأعيان ، حَقَّقَهُ وعَلَّق عليه حسين يوسف خريُوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط1 ، 1409هـ - 1989م ، 739/2 .

(14) انظر : يَاقُوت الحَمَوِيّ : مُعْجَم البُلْدَان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1397هـ - 1977م ، 354/3 .

(15) فاضل فتحي والي : الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسيّ ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1417هـ - 1996م ، ص 327.

(16) انظر : ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، تحقيق السيد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1379هـ - 1960م ، ص 48 .

(17) نوال عبد ربه : الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة الأندلسي ؛ مقاربة أسلوبيَّة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات والفنون ، جامعة وهران ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، 2011م ، ص19 .

(18) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 135 .

(19) افترض حمدان خفاجي أن ابن خفاجة تَوَقَّفَ عن قول الشعر عشر سنوات (490هـ - 500هـ) ، وسبب التوقُّف احتلال بَلَنْسِية ، وإقامة جيوش العَدُوّ بها تحت قيادة السيد القَنْبِيطُور ، وسبب العودة إلى قول الشعر تَوَلّي الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبيه . انظر : حمدان خفاجي : حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1974م ، ص91 – 95 .

(20) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 7 من خطبة الديوان .

(21) حمدان خفاجي : حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، ص95.

(22) نوال عبد ربه : الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، ص19 .

(23) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 178 .

(24) انظر : المصدر نفسه ، ص 441 .

(25) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ؛ عصر الطوائف والمرابطين ، المكتبة الأنـدلسية عدد (3) ، دار الثقافة ، بيروت ، ط6 ، 1981م ، ص 205 .

(26) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 310 .

(27) الحِمْيَرِيّ : الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، تحقيق إحسان عباس ، مُؤَسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980م ، ص 46 .

(28) ابن رشيق القيرواني : ديوان ابن رَشِيق القَيرَوَانِيّ ، جمعه ورَتَّبَهُ عبد الرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ - 1989م ، 218/1 .

(29) علي محمد سلامة : الأدب العربيّ في الأندلس ؛ تطوُّره ، موضوعاته وأشهر أعلامه ، الدار العربيّة للموسوعات ، بيروت ، ط1 ، 1989م ، ص 353 .

(30) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 267 .

(31) انظر : عبد الكريم فاضل عبد الكريم العاني وإياد سالم إبراهيم نمال الجنابي : الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي (ت533هـ) ، ص 200 .

(32) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 267 – 268 .

(33) المصدر السابق ، ص 268 .

(34) فاضل فتحي والي : الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسيّ ، ص 336.

(35) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 268 .

(36) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(37) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 268 – 269 .

(38) المصدر السابق ، ص 269 .

(39) فاضل فتحي والي : الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسيّ ، ص 457.

(40) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 225 .

(41) المصدر السابق ، ص 177 - 178 .

(42) إحداهما همزية ، استغرقت خمسة وعشرين بيتًا ، والأخرى بائية ، استغرقت واحد وخمسين بيتًا ، والثالثة دالية ، استغرقت ثلاثة وخمسين بيتًا. انظر : ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 178 – 180 ، 217 – 221 ، 231 – 234 .

(43) المصدر السابق ، ص 178 – 179 .

(44) المصدر نفسه ، ص 198 .

(45) المصدر نفسه ، ص 199 .

(46) المصدر نفسه ، ص 183 .

(47) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 64 .

(48) المصدر السابق ، ص 369 – 370 .

(49) عامر إسماعيل محمد بني سلمان : الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 1998م ، ص67 .

(50) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 61.

(51) المصدر السابق ، ص 218.

(52) المصدر نفسه ، ص 127.

(53) المصدر نفسه ، ص 149.

(54) ابن خَاقَان : مَطْمَح الأَنْفُس ، ص 348 – 349 .

(55) انظر : إبراهيم القادري بوتشيش : ظاهرة الزواج في الأندلس إِبَّان الحِقْبَة المُرَابِطِيَّة من خلال نصوص ووثائق جديدة ، مجلة دراسات أندلسية ، العدد (9) ، 1993م ، ص 10 .

(56) انظر : زكريا إبراهيم : مشكلة الإنسان ، ص 153 .

(57) راشد عيسى ونضال الشمالي : خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي ؛ قصيدة الجبل أنموذجًا ، ص 1984 .

(58) الضَّبِّيّ : بُغْيَة المُلْتَمِس ، 1/ 266 .

(59) عبد الواحد المَرَّاكُشِيّ : المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1414هـ - 1994م ، ص 116 .

(60) عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ؛ من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ /711 - 1492م) ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ط2 ، 1402هـ - 1981م ، ص 332 .

(61) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ - 1988م ، 483/4 .

(62) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 483/4 .

(63) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 484/4 .

(64) انظر : عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص 352 .

(65) انظر : عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص 369 .

(66) عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص 373 .

(67) انظر : عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص 377 ، 379 .

(68) الحِمْيَرِيّ : الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، ص 97 .

(69) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ؛ عصر الطوائف والمرابطين ، ص 187 .

(70) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 354 .

(71) ابن سعيد : المُغْرِب فِي حُلَى المَغْرِب ، حَقَّقَهُ وعَلَّقَ عليه شوقي ضيف ، سلسلة ذخائر العرب رقم (10) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1993م ، 2/ 22 .

(72) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 188/1/3 – 189 .

(73) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 357 .

(74) انظر: عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، دار غريب ، القاهرة ، 2003م ، ص23 .

(75) انظر : حسين جمعة : الاغتراب في حياة المعري وأدبه ، مجلة جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، سورية ، المجلد السابع والعشرون ، العددان الأول والثاني ، 2011م ، ص 23 .

(76) انظر : إريك فروم : المجتمع السويّ ، ترجمة علي مولا ، د . ط ، ط1 ، 2009م ، ص 102 .

(77) انظر : المرجع السابق ، ص 322 – 323 .

(78) آمال عبد المنعم الحراسيس : ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام ، رسالة لاستكمال متطلبات نيل درجة الدكتوراه ، جامعة مؤتة ، الكرك ، الأردن ، 2016م ، ص 23 .

(79) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 183 .